الهويّة والاختلاف في التصور الفكري والفلسفي لفرنسوا لارويل François Laruelle

د. نادية طهار
جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم

ملخّص

تعد مسألةُ الهويّة والاختلاف أطروحةً مركّبةً، معقدةً تكشف عن عمقها الإشكالي ضمن المجتمعات الإنسانية في علاقاتها غير المتكافئة من حيث القوّة والسّلطة والنّفوذ؛ فسيادة منطق القوّة في الوسيلة والتّقنيةأدى إلى سيادة أخرى تطأُ اللغة والثقافة والفكر، وإذا سلّمنا بمبدأ، البقاء للأقوى فإنّ كثيرا من الهويّات لن يعود لها وجود نوعي.

إن قضية الهويّة والاختلاف في سياقاتها الواقعية الاجتماعية لا تفتأ متوتّرة متصدّعة تظهر في علاقات صراع بين الغالب والمغلوب، وإذا كان منطق القوّة يحكم واقع المجتمعات البشرية فإن منطقا عقليّا إنسانيّا مختلفا يثبت أحقيّة الأفراد والمجتمعات في التّميُّز والاختلاف. ويبقى الخطابُ الفلسفيُ والفكريُ الفضاءَ الذي تُطرح فيه مسألة الهويّة والاختلاف للدّرس والتحليل؛ وفي هذا الشأن ألف فرنسوا لارويل كتابين مهمين هما: Les Philosophies de la Différences ، و La Théorie des Identités.

الكلمات المفتاحية: الهويّة ـ الاختلاف ـ الفلسفة ـ اللّافلسفة ـ الأحد L'UN ـ الكائن L'ETRE ـ

الإشكالية:

لمقاربة التصور الفكري للارويل عن الهوية والاختلاف نطرح الإشكالات الآتية: ما هو المشروع الفكري الذي يقدمه لارويل للإنسان وهو يبحث في الهوية والاختلاف، وما هي آليات تكوينها؟

ما طبيعة العلاقة الموجودة بين الإنسان والفلسفة والميتافيزيقا عند لارويل؟ ولماذا ينسب نفسه إلى ما يسميه اللافلسفة؟ ما هي المفاهيم التي يقترحها في هذا الحقل؟ثم من هو فرنسوا لارويل؟

Résumé :

*L'Identité et la Différence dans laperception de*la pensée et de la philosophie de François Laruelle

La question de l'Identité et de la Différence est considérée comme une thèse complexe et compliquée dans le champ philosophique contemporain.Pour cettequestion qui est grande et profonde, François Laruelle consacre deux ouvrages : La théorie des Identités et les philosophies de la Différences dont il étudie la nature ou l'essence de l'Identité, de la Différence, de l'Un et de l'Etre.

François Laruelle afondé une discipline appelée la non philosophie qui pour lui une pratique radicalement immanente, et une pensée de la création et de l'invention.

التعريف بفرنسوا لاروييلFrançoislaruelle [1]

يعد فرنسوا لاروييلFrançoislaruelleمن المفكرين الفرنسيين الذين اشتغلت كتاباتهم حول موضوع الهوية والاختلاف وهو يتزعم منهجا جديدا في التفكير يسمى La non philosophie.

ولد لاروييل في سنة 1937 بفرنسا وهو مؤسس اللافلسفة، اشتغل مدرسا في بداية حياته وفي تكوينه العلمي. كان بول ريكورPaul Ricœur مشرفا على أطروحته العلمية. يشغل الآن منصب أستاذ الفلسفة المقارنة بباريس 10 Nanterre. Parisويتقلد رئاسة شرفية لجمعية اللافلسفة.

أسس وسير عدة مجلات هي:

Pourquoi pas la philsophie 1983 -1985.

La decision philosophique سنة 1987 -1989.

وسلسلة L'ivention philosophique و Bibliotheque de non philosophie منذ 1995.

ألّف كمًّا هائلا من المقالات والأعمال المشتركة وعددا من المؤلفات نذكر منها: Les Philosophies dela Différences و .La Théorie des Identités وهو لم ينقطع عن الكتابة والتأليف إلى أن وافته المنية سنة 2014 بفرنسا.

1_ مفهوم اللا فلسفة والفلسفة عند فرنسوا لاروييل

يحدد لاروييل مفهوم اللا فلسفةLa non-Philosophie في كتابه Principe de la non-philosophie من خلال ما تعالجه وما تهدف إليه وما تقدمه على نظيرتها الفلسفة. يقول في كتابه متحدثا عن "مبادئ اللا فلسفة" إن اللا فلسفة ليست فقط وصفية ولكنها أيضا تنظيرية، فهي تتعدى فهم الوقائع إلى تفسيرها. ويربط لاروييل اللا فلسفة بالواقع يقول: "إن اللا فلسفة تستجيب لما هو واقعي، وهي تسعى إلى معرفة طبيعة الموضوع دون أن تمتزج معه، واللا فلسفة لا تتأسس إلا بوجود الهوية الحقيقية كما أنها تعالج كل المواضيع دون استثناء[2]. يبين لاروييل في هذا النص الدور الحيوي والفعال للا فلسفة حيث تجمع بين الوصف والتنظير إذ لا تكتفي بفهم الظواهر والوقائع التي تتعيئها وتدرسُها، بل تتعدى ذلك إلى تفسيرها من خلال البحث عن الأسباب والنتائج. ويبرز النص العنصر الذي تتأسس عليه اللا فلسفة يتمثل في وجود ما أسماه الهوية الحقيقية.ذلك أنها ـــ اللا فلسفة ـــ تنبذ المفاهيم والتصورات القبلية عن الوقائع والظواهر.

إن الهدف العام لفرنسوا لاروييل يتلخص في مشروع فكري يهدف إلى جعل الإنسان مركز العالم تحوم حوله كل الموجودات المادية والمعنوية، وهذه الموجودات هي التي تطاوعه، ولإتمام هذا المشروع يحاول لاروييل الإجابة عن إشكالية ماهية الفكر، هل تكمن في المنطق أم في رؤيا هذا الأحد L'UN، وليبرز مكانة وشأن هذا الأخير ينبهنا لاروييل إلى أن الفلسفة كنشاط فكري يجب أن تكون في خدمة الإنسان وليس أن يكون الإنسان هو الذي يخدم الفلسفة[3].

يحصر لاروييل وظيفة الفلسفة ويرى أنها لا تنزل من الممكن إلى الواقع دون أن تسلك الطريق نفسه عكسيا أي من الواقع إلى الممكن والعلاقة بينهما جدلية. أما الاستعمال الأمثل للفلسفة فهو أن تبقى وسيلة في خدمة البشر. كما يكشف لاروييل على عدم اكتفاء الفلسفة بذاتها، لذلك يرى أنه ليس هناك فلسفة، بل فلاسفة وهي إشارة إلى التنوع والتعدد والاختلاف بين الفلاسفة أنفسهم.

يدرس لاروييل ماهية الأحد L'UN والحقيقة والهوية والاختلاف والكائن L'Etre في علاقتها بالفلسفة والعلم والتحولات الاجتماعية في إطار التكنولوجيا الحديثة. ويرى أن الواقع وكل ما يحمله من تشابهات وتناقضات وحركية مستمرة هو الذي يحدد المفاهيم في زمانها.

أما نزعة اللافلسفة التي تبناها لاروييل فقد استخلصها من كون أن الفلسفة موجود مائع، إما أن نتحرر منها و إما أن تصبح ملكا للجميع، فقام برفض كل مبدأ ميتافيزيقي في تحديد الحقيقة وكرس لمبدأ نقض الميتافزيقا التي

تتعالى على الإنسان وتحدد له ماهيات الأشياء[4]. هذه الحقيقة وماهيتها عند لاروييل لا يمكن أن تتكون لوحدها، وإنما تدخل في تكوينها كل العناصر التي ترتبط بها وهي ـــــ أي الحقيقة ـــ مرهونة بالتطورات الاجتماعية والواقعية للإنسان، وبالتالي فإن الحقيقة ليست مطلقة ولا ثابتة، ذلك أن قانون الحركية الواقعية هو الذي يحكم العالم. وفي رأي باحثنا لا وجود للبديهيات بمعناها المنطقي القار.

من خلال ما تقدم نستخلص أن اللافلسفة la Non philosophie علم يهدف إلى فهم الوقائع وتفسيرها كما أنها ترفض التصورات القبلية للأشياء، وأن الحقيقة تخضع للحركية والتطور، ومن بين الوقائع التي تسعى اللافلسفة إلى فهمها وتفسيرها نجد مسألة الهوية والاختلاف.

2- الهوية و الاختلاف عند لاروييل:

يتميز الاختلاف عند لاروييل بأنه يزيح التناقض والمثال، ويستوعب الانقسام والوحدة (الهوية) إنه العنصر الذي يوحد حالا وإيجابيا المتناقضات، ويرى أنه من الضروري الانتقال من متافزيقية الاختلاف إلى واقعيته. وفي هذا السياق يستعرض لاروييل في فكره رواد الفلسفة الحديثة والمتجددة وهم نيتشه وهايدجر ودلوزودريدا ويرى أن الاختلاف مفهوم أساسي عند هؤلاء الفلاسفة، ناقش علاقة الاختلاف بين الغالب والمغلوب وبين الفئة الأكثر يمكن سيطرة ونفوذا وبين الأقليات Les Minorités، وكيف للهوية أن تحافظ على ذاتها وهي تعني تطابق الشيئ مع ذاته وعناصره، رغم التحول والتغير الذي يطرأ عليه، ويتم التعبير عنه بصيغة رياضية أ هي أ وتسعى الهوية إلى توضيح معلم الشيء ذاته.

إن الهوية عند لاروييل غير مفروضة ولا مشروطة على الإنسان وبالتالي لا يمكن أن نتحدث عن هوية ما، إلا إذا قدرنا كينونتها.[5] أما سعادة الإنسان التي هي مخطط أعماله فإنها لا تتحقق إلا بائتلاف اختلافه وذلك حين يسلّم الفرد بإيجابية الاختلاف ويستثمره لصالحه. وإذا كان الباحث ينظر إلى الهوية ككيان مستقل فإنه في الوقت نفسه، يؤمن بالتعدد والتنوع وإيجابية الاختلاف داعيا إلى تفكيك المفاهيم التي تتعالى على الإنسان جاعلا منه ـــ الإنسان ـــ مركز العالم تخضع له المفاهيم والحقائق لذلك فإن ماهية الحقيقة عنده متنوعة ومتعددة ومتحركة.

تتمظهر مسألة الهوية والاختلاف عند لاروييل في عنصر أساسي هو L'UN "الأحد": ويقصد به لاروييل كل ماهو مطلق غير مقيد بصفة، وصفة الإطلاق هي التي تجعله يستوعب مفهوم الهوية والاختلاف في الوقت ذاته، لأن الاختلاف أو الاختلافات بالجمع كما يسميها Les Differences توصل الإنسان إلى التوحد حين يقبل كل أحد الآخر.كما أن L'Un ليس بحاجة إلى التكرار بل هو مكتف بذاته. ويعتبر لاروييلL'Un الأحد ذلك الواقع اللا فلسفي أو الذي لا يُتفلسف فيه Non philosophiable[6]، حيث تتلخص فلسفة هذا المفكر في تركيزه على الأحد L'Un فالأحد متعال لا يقبل التقسيم، موحد لا تقيده صفة ما، ولأن الواقع يقيم في الأحد فهو يمثل القوة والسلطة[7] التي يخضع لها الكائن L'Etre والآخر L'Autre.

فالكائنL'Etre كل ما هو مقيد بصفة كما أنه يقبل التعدد والانقسام.

والآخر L'Autre كل ما هو مختلف و متميز عن الأنا، ولكنه ليس مناقضا لها وكلاهما يخضعان لسلطة الواقع وصيرورته.أيL'UN[8].

تعتبر مسألة الهوية والاختلاف عند لاروييل من المسائل الجدية والمثيرة والمعقدة، إذ تتطلب جهدا إضافيا للتمكن من فهم طروحاته وفك مغاليق لغته ومقاربة منهجه الفلسفي (اللافلسفي) حيث تتميز كتاباته بنوع من الانفلات اللغوي والتركيبي ، مستحدثا اصطلاحات ومفاهيم جديدة وذلك بواسطة النحت أو بواسطة صيغ مجازية واستعارية الأمر الذي يجعل ترجمة نصوصه مطلبا عسيرا غير هين سيما أن المكتبة العربية تنعدم فيها المؤلفات المترجمة لباحثنا، إضافة إلى ندرة إن لم نقل عدم اهتمام الباحثين والمفكرين العرب بعلم معاصر يسمى اللافلسفة la Non philosophie.

إرادة منا بالتعمق في فكر لاروييل ارتأينا أن نقدم نموذجا للدراسة والتحليل كتابه المعنون "نظرية الهويات Théorie des identités".

تدل كلمة "نظرية" على وجود مجموعة من الآراء والمفاهيم والتعريفات والافتراضات لمسألة الهوية قصد تحديد العلاقات المختلفة والمتغيرات الخاصة بها من أجل تفسيرها أو التنبؤ بها، ومجيء كلمة الهويات بالجمع يحمل معنى التعددية والاختلاف.

يحوي الكتاب ثلاثة محاور أساسية، ينقسم كل محور إلى فصول وكل فصل ينضوي على عناوين عامة وجزئية، إضافة إلى المقدمة والخاتمة.

يحاول فرنسوا لاروييل في كتابه نظرية الهويات "Théorie des identités أن يبرز أهمية توجهه الذي تبناه (اللا فلسفة) من خلال تتبعه لكل المسائل التي تطرحها الفلسفة وهو في كل ذلك يقارب بين اللا فلسفة والعلم من حيث واقعيتها واعترافها بالهويات معتبرا إياها علما من حيث المنهج وفلسفة من حيث الموضوع ، بينما يبقى الاختلاف الجوهري بين الفلسفة واللا فلسفة في أن الأولى متعالية والثانية واقعية. يقول:" إن اللافلسفة محاولة علمية تستلهم موضوعاتها من الفلسفة، ولكنها تقربها من الواقع لأن الفلسفة لا تعرف الواقع ولا تعالجه في هويته، بل كما تتصوره.

يطرح لاروييل في هذا الكتاب إشكاليات وقضايا ومفاهيم متعددة أهمها: الهوية، Idetité'الاختلاف la Différence،العلم la Science،الفلسفة la philosophie، اللا فلسفة...la Non philosophie، ورغم توجه الكاتب المعادي للفلسفة إلا أنه ينوه بأهمية هذه الأخيرة بالنسبة للإنسان موضحا غايته من هذا التناول، مبينا في مقدمة كتابه، أنه لا يبحث عن أصول وتاريخ الفلسفة، ولكنه يسعى إلى إعطائها مستقبلا واستمرارية شريطة أن لا تبقى ثابتة ومتعالية وفي سياق البحث عن الفلسفة واللا فلسفة يشير في كتابه philosophie non standard أنه يتحدث عن شيئين غريبين مرتين "الفلسفة على أنها لا فلسفة" . وينبهنا إلى أن الفلسفة الحديثة وضعت حدا للهيجلية والماركسية والبنيوية وأصبحت تشد انتباهنا إلى موضوعات جديدة متميزة، إلا أن اكتشاف هذه العناصر الجديدة تخضع إلى ما يسميه (ما بعد الميتافيزيقا postmétphysique بينما تبقى الإشكالية المطروحة هو عدم القدرة على التخلص من التصور الفلسفي الميتافيزيقي لهذه الموضوعات objets.[9] وما يبرهن على أن الفلسفة بعيدة عن الواقعية هو أن موضوعاتها مخترعة أو متخيلة imaginées ، وهي ـــ أي الموضوعات ـــ تستمد واقعيتها من الفلسفة ذاتها، هذه الأخيرة توظفها لأهدافها وتصوراتها الصرفة منتزعة منها ـــ objets نسبة من معانيها وحقائقها التي تتميز بها، وتنظر إليها على أنها متعددة لا هوية لها، بل هي موجهة ضد أية هوية.

بناء على ما تقدم نستنتج أن الكاتب يحث الفلسفة الحديثة عل ضرورة التخلص من التفكير المتعالي، والابتعاد عن التصورات والمفاهيم الميتافيزيقية للأشياء، وإذا أرادت الفلسفة أن تخدم الإنسان فعليها أن تعترف بالتفرد، والهوية، والاختلاف. وبما أن الفلسفة علم لا يُعنى بالأحد l'Un وإنما يهتم بالكائن l'Etre، حاول لاروييل أن يقدم بديلا للتفكير الفلسفي يسمى اللاّفلسفة والتي يقابلها بالفكر العلمي النابع مباشرة من الواقع باحثا عن وسائل تمكنه من فهمه وتفسيره. يقول بهذا الصدد:" نأمل أن نجد وسائل جديدة للقدرة على تقديم وصف وفي لمادية التاريخ، والعلم، والفن."[10]

يقدم لاروييل في كتابه نظريته في الهويات وقد جعلها بصيغة الجمع مما يعني أن الهوية بذاتها متعددة، و ترتبط ارتباطا وثيقا بالاختلاف ـــ كما سبق الذكر ـــ ، وينوّه إلى أنها نظرية ترفض تقاليد الفلسفة في تحديدها المسبق للحقائق وهي ذات أصل علمي، مستلهما من الرياضيات والفيزياء نظرية الكسيرات والفوضى[11] [12] وفيها يناقش موضوعات لصيقة بحياة الإنسان التي يعتبرها من مكتشفات الفكر الحديث وهي تسير ضد الميتافيزيقا.

استقرأ لاروييل في كتابه ـــــ نظرية الهويات ـــــ الفلسفة الغربية من أفلاطون إلى كانط إلى هيدجر، فتوصل إلى أن هذه الفلسفات كلها ترضى بالمعارف التي يقدمها العلم ولكنها ترفض أي تفكير علمي. ويقدم الباحث مقارنة

بين العلم والفلسفة ليضعهما في علاقة تناقض، فبينما يرتبط العلم بالواقع المتميز بالظاهرية والمماثل لنفسه، تنحو الفلسفة منحى متعاليا وتقدم تفسيرات مسبقة.

إن ماهية العلمEssence de la Science ـــ عند لاروييل ـــــ تنبع من استقلالتيه عن الفلسفة، إذ يتناول ـــ العلم ـــ الظواهر كما هي في الواقع ويستخلص النتائج من خلالها ويبتعد عن تلك الفرضيات التي تبحث عن إثباتات في الواقع، ذلك أن العلم في نظر الكاتب وصف غير إبستملوجي، أي أنه بعيد عن الفلسفة وهو ـــ العلم ـــ لا تثبت فاعلته وصدقيته إلا بتجربة واقعية.

يبين لاروييل أهمية العلم في أنه نوع من التفكير الذي يعترف بهوية الظواهر ويبحث في أسباب وجودها. ويستنتج أن الظواهر الموجودة طبيعية، تاريخية، اجتماعية، اقتصادية، لابد أن يسعى الإنسان إلى فهمها، لا إلى إلغائها أو إقصائها، وعليه يصر الكاتب على رفض مبدأ تأويل الظواهر لأنه يبعدها عن هويتها ويقدمها حسب التصورات الخارجية عن ماهيتها، لذلك يُؤثر الكاتبُ اللا فلسفة كبديل أمثل للفلسفة لما لها من ارتباط وثيق بالعلم.

العلم واللافلسفة La Science et la Non Philosophie

يشرح لاروييل في كتابه نظرية الهويات الاتجاه الذي تبناه La Non Philosophie ويعتبره علما من حيث المنهج والماهية ولكنه يرتبط مباشرة بالفلسفة من حيث الموضوع يقول:" إن اللافلسفة محاولة علمية تستلهم موضوعاتها من الفلسفة، ولكنها تقربها من الواقع Le réelleلأن الفلسفة لا تعرف هذا الواقع ولا تعالجه في هويته بل كما تتصوره."[13] والهوية Identitéفي نظر لاروييل قضية واقعية، وهي تظهر في شكلها البسيط وتعكس الواقع أكثر مما تعبر عنه. فالهوية موجودة في ذاتها وترفض المفاهيم الفلسفية والمعتقداتية والعلم ينظر إليها من الداخل، فاقترح ما يسمى بنظرية الكسيرات المعممة.

الهوية ونظرية الكسيرات المعممةThéorie des fractales généralisée

يرى لاروييل أن الهوية تتطور من الداخل فتصير هويات وهي تختلف بقدر ما تتشابه وهذا المبدأ النظري استلهمه من الهندسة النمطية فاستعار ما يسمى بنظرية الكسيرات التي تتناول صيرورة الظواهر عبر حقب مختلفة، وتعم جميع الظواهر الكونية، إذ تخضع إلى مبدأ التشابه والاختلاف، فتتطور من داخلها، وهي تتشابه بقدر ما تختلف من حيث الحجم والحدة والكثافة يتحكم فيها مبدأ اللانتظام داخل نظام كلي، .وهكذا يؤكد لاروييل على أن نظرية الهويات ذات أصول علمية وليس فلسفية، ترد كل المفاهيم القبلية والميتافيزيقية، وتنزع إلى الواقعية والتجربة.

واقع اللا فلسّفة ومكانة فرنسوا لاروييل في الفكر المعاصر

يتزعم لاروييل ـــــ كما أسلفنا الذكر ـــــ اتجاه اللافلسفة La Non Philosophieفأنشأ من أجل ذلك هيئة فكرية ثقافية تدافع عن هذا المذهب الفكري الجديد الذي يستند إلى تسمية تقليدية هي (الفلسفة) ولكن الاختلاف بينهما شاسع، وهي أي اللافلسفةمستقاة ـــــ على حد تعبيره ـــــ من فكر kierkegaard[14]،والذي هو مفكر ديني أكثر منه فلسفي.[15] وقد ألفلاروييل كتبا ومقاللات عديدة في ميادين متعددة ومختلفة تصب في الواقع وصيرورته وديناميته. أماالملفت للانتباه فإن اتجاه اللاّفلسفة لم يجد رواجا واهتماما لدى الباحثين والمفكرين والفلاسفة، سواء عند الغرب أو عند العرب. فعند الغرب لا توجد دراسات أكاديمية تتناول بالدرس والتحليل كتابات لاروييل واتجاهه الفكري إلا القليل منها أغلبها على شكل مقالات مبعثرة في الشبكة العنكبوتية تحمل طابع الانطباعية بعيدة عن العلمية. أما ساحة الفكر العربي المعاصر فإنها خالية من مؤلفات ولم نعثر خلال بحثنا إلا على كتاب واحد يتحدث عن اللاّفلسفة لمحمد ثابت الفندي حيث يناقش فيه صور اللاّفلسفة وما تركز عليه من نماذج، وانتهى إلى نتيجة أن اللاّفلسفة نزعة مادية ليس لها أية نتيجة بناءة. وفي هذا السياق نطرح تساؤلا واقعيا لماذا بقي لاروييل مغمورا بالرغم من نتاجه الوفير والمتواصل؟ هل هو سابق لأوانه؟ أم أن أفكاره تجاوزها الزمن؟ تلك أسئلة ستجد إجابات في المستقبل؟

الهوامش

1 -https://www.cairn.info/revue-le-philosophoire-2003-3-page-203.htm

2 -.10,13 Principe de la non-philosophie Epimethée Essais phylosophique p ينظر كذلك , philosophie non standart المقدمة.

3 -3- ينظر .Philosophie et non-philosophie, Liège-bruxelles, Mardaga, 1989.p 25, 27,30

4 -Lettre non-philosophique de François Laruelle du 06 Septembre 2010 p 15

5 -..Les philosophies de la différence. Introduction critique, Paris, PUF, 1986 p 122

6 - المرجع نفسه، ص 6.

- Théorie Des Identités Presse Universitaire de France. P1137

8 ينظر les philosophies de la Différences Presse Universitaire de France P 86-

9 -Théorie des identités ، ص 15.

10 - المرجع نفسه، ص 27.

11 - نفسه، ص 42.

12 -

13 - المرجع السابق، ص138، 150.